تفسير ابن كثير

يقول تعالى : { حم * والكتاب المبين } أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ولهذا قال تعالى : { إنا جعلناه } أي نزلناه { قرآنا عربيا } أي بلغة العرب فصيحا واضحا { لعلكم تتقون } أي تفهمونه وتتدبرونه كما قال D : { بلسان عربي مبين } وقوله تعالى : { وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم } بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض فقال تعالى : { وإنه } أي القرآن { في أم الكتاب } أي اللوح المحفوظ قاله ابن عباس Bهما ومجاهد { لدينا } أي عندنا قاله قتادة وغيره { لعلي } أي ذو مكانة وشرف وفضل قاله قتادة { حكيم } أي محكم بريء من اللبس والزيغ وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله كما قال تبارك وتعالى : { إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين } وقال تعالى : { كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة } ولهذا استنبط العلماء Bهم من هاتين الايتين أن المحدث لايمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى لأنه نزل عليهم وخطابه متوجه إليهم فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم والانقياد له بالقبول والتسليم لقوله تعالى : { وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم } .

وقوله D : { أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين } اختلف المفسرون في معناها فقيل معناها أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به قاله ابن عباس Bهما وأبو مجاهد الصالح والسدي وجرير ابن واختاره قتادة وقال تعالى قوله في أفنضرب } : عنكم الذكر صفحا ؟ } وا لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن ا تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم ودعاه إليهم عشرين سنة أو ما شاء ا من ذلك وقول قتادة لطيف المعنى جدا وحاصله أنه يقول في معناه إنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدر هدايته وتقوم الحجة على من كتب شقاوته .

ثم قال جل وعلا مسليا لنبيه صلى ا عليه وسلّم في تكذيب من كذبه من قومه وآمرا له بالصبر عليهم : { وكم أرسلنا من نبي في الأولين } أي في شيع الأولين { وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون } أي يكذبونه ويسخرون به وقوله تبارك وتعالى : { فأهلكنا أشد منهم بطشا } أي فأهلكنا المكذبين بالرسل وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يا

محمد كقوله D : { أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة } والايات في ذلك كثيرة جدا وقوله جل جلاله : { ومضى مثل الأولين } قال مجاهد : سنتهم وقال قتادة : عقوبتهم وقال غيرهما : عبرتهم أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم كقوله تعالى في آخر هذه السورة : { فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين } وكقوله جلت عظمته : { سنة ا التي قد خلت في عباده } وقال D : { ولن تجد لسنة ا تبديلا }